الغرب هو الجانى دائمًا.. والإسلام هو المجنى عليه !

فى يوم ١٤ أبريل ٢٠٠٥ أعدت لجنة حقوق الإنسان فى الأمم المتحدة فى دورتها المنعقدة فى جنيف قرارا يكلف الأمم المتحدة بمراقبة إهانة الأديان، وإهانة الإسلام بصفة خاصة، ودراسة أوضاع المسلمين والشعوب العربية فى أنحاء العالم لرصد التمييز الذى يتعرضون له، ورصد عمليات الهجوم وتخريب المساجد والممتلكات الإسلامية.

وفى نفس اليوم نشرت الصحف ملخصا لكتاب صدر فى كوبنهاجن عن حياة الملكة مارجريت ملكة الدانمارك، وهو تسجيل لمقابلات مع الملكة سجلتها الكاتبة الصحفية أنيليسا بيستروب، قالت فيه الملكة: إننا لم نكن ننظر إلى الإسلام بجدية. بل كنا كسالى، وغير معنيين بالأمر، ولا نريد أن نقيم علاقة مع المسلمين.. وكنا لسنوات طويلة نواجه الإسلام محليا وعالميا ونعتبره التحدى الذى يهدد وجودنا، والآن يجب أن نعيد النظر بجدية فى هذا الموقف..

وقالت ملكة الدانمرك أيضاً: إننى منبهرة من هؤلاء الناس المتدينين الذين يرافقهم الدين فى حياتهم من الصباح إلى المساء، ومن وقت ولادتهم إلى موتهم، وهذا ينطبق أيضا على المسيحيين المتدينين.

وقالت: لوقت طويل تم شحننا ضد هؤلاء المسلمين لأننا كسالى وغير مهتمين بالموضوع، ولم نعرف عن الإسلام كثيرا ولم نقرأ الكتب الإسلامية، وأعتقد أننا يجب ألا نظل كذلك، وأن نفتح الحوار مع المسلمين، ونقيم معهم علاقة، ونتصدى للمتشددين، ونتعرف إلى الإسلام بشكل أفضل، ولا ننظر إلى جميع المسلمين على أنهم كلهم سواء.

وعلّقت الصحافة على ذلك بأن الملكة توجه فى هذا الكتاب رسالة إلى الشعب الدانمركى والحكومة المتشددة فى سياساتها تجاه الأجانب وبخاصة المسلمون. وهى كملكة لا تتدخل فى السياسة، إلا أنها رأت أن الأمور قد وصلت إلى درجة تدفعها إلى أن توجه النصيحة إلى الحكومة وإلى الشعب بأن يكون منفتحا على الشعوب الأخرى وبخاصة المسلمون، وأن يقرأ ويتعلم حقيقة الإسلام.

وفى ندوة عقدت فى مدينة روتردام الهولندية فى شهر أبريل ٢٠٠٥ كان عنوان الندوة (الإسلام والاندماج) والموضوع الرئيسى فيها محاولة بعض الأطراف استغلال أحداث الإرهاب فى أنحاء من العالم للإساءة إلى الإسلام، مع أن هذه الأحداث نتيجة ظروف لا دخل للإسلام فيها. وتناولت الندوة محاولات إبعاد الإسلام عن المشاركة فى الحياة العامة والتضييق على المسلمين المقيمين فى هولندا.

فى هذه الندوة قال رئيس وزراء هولندا- يان بيتر بالكننده: إن الإسلام كدين لا يُشكِّل أى خطر على المجتمع الهولندى أو على المجتمعات الغربية عموما، وإن الجماعات المتطرفة الإسلامية وغير الإسلامية هى التى تسىء إلى الإسلام، وعلى مجتمعات الغرب احترام معتقدات الآخرين وهذا هو السبيل الوحيد لحل جميع الخلافات بين الطوائف المختلفة. وكرر تعبيره عن احترام الإسلام، وقال: إن الحكومة الهولندية تعمل على إدماج المسلمين المقيمين فى هولندا فى المجتمع الهولندى ومعالجة أسباب انعزالهم. وتقرر فى ضوء مناقشات هذه الندوة إصدار وثيقة رسمية باسم (اتفاق المواطنة) لمحاربة التمييز ضد المسلمين. وقررت بلدية روتردام توزيع هذه الوثيقة على سكان المدينة.

قبل ذلك، فى يناير ٢٠٠٤ ألقى كوفى عنان الأمين العام للأمم المتحدة محاضرة فى مقر المنظمة الدولية بنيويورك انتقد فيها بكلمات صريحة ومباشرة المضايقات التى يتعرض لها المسلمون، وحملة التمييز ضدهم، التى ازدادت بعد أحداث ١١ سبتمبر. وفى هذه المحاضرة طالب الأمين العام للأمم المتحدة بتصحيح الأخطاء التى ارتكبت فى حق المسلمين عبر التاريخ، وذكر ما حدث للمسلمين أثناء الحروب الصليبية، وفى البوسنة، والسياسات الإسرائيلية فى فلسطين وفى الشرق الأوسط عموما، وما يحدث فى العراق.

ولم يكن كوفى عنان وحده الذى أعلن بصفته الدولية حقيقة ما يواجه المسلمين من حملة كراهية منظمة، فقد سبقه إلى هذا الموقف بابا الفاتيكان الراحل يوحنا بولس الثانى حين انتقد القانون الفرنسى الذى يحظر ارتداء الحجاب فى المدارس الحكومية على الفتيات المسلمات فى فرنسا، وأبدى البابا مخاوفه من تعرض الحريات الدينية فى أوروبا للخطر بسبب تعنت السلطات فى موقفها من منع الفتيات من تغطية رءوسهن. وكان لكلمات البابا أصداء سبّبت إحراجا لعدد من الحكومات الغربية، ولكنها - مع ذلك - لم تغير من الأمر شيئا.

وتزامن مع ذلك موقف الرئيس الألمانى فى ذلك الوقت (يوهانس راو) برفض ظواهر التمييز ضد المسلمين فى المجتمعات الغربية، وقال: (إذا صدرت فى ألمانيا قوانين لمنع غطاء الرأس فى المدارس باعتباره رمزاً دينياً، فسيكون من الصعب الدفاع عن ارتداء الرهبان مسوحهم. والدستور

الألمانى يقرر معاملة متساوية للأديان فى مجالات الحياة العامة ومنها المدارس. وأن مستقبل ألمانيا بوصفها مجتمعا ذا طابع مسيحى لن يتقرر بنوع الملابس التى يرتديها تلاميذ المدارس مهما يكن عددهم.

وكان الرئيس الألمانى بذلك يرد على المستشار الألمانى جيرهارد شرودر عندما أعلن: أن من حق الثقافة الألمانية، بوصفها وليدة الفلسفة الإغريقية الرومانية والديانة اليهودية المسيحية وأفكار عصر التنوير، أن ترفض غطاء رأس التلميذات المسلمات فى المدارس بوصفه رمزا دينيا.

ولا شك أن ما قاله الرئيس الألمانى له أهمية كبيرة، لأن أوروبا لم تعرف شخصية عامة فى وزن الرئيس الألمانى لديها الشجاعة لأن تعارض إصدار قوانين تمنع المسلمات من ارتداء غطاء الرأس فى المؤسسات الإسلامية. والرئيس (يوهانس راو) بالذات له أهمية خاصة - غير أنه رئيس دولة غربية - لأنه أقرب السياسيين الألمان إلى الكنيسة الإنجيلية، وهو ابن واعظ.

❑❑❑

هكذا نرى أن موقف الغرب من الإسلام قد أصبح موضوعا للجدل على أعلى المستويات السياسية ولم يعد مقصورا على المفكرين والكُتّاب ورجال الدين. وهذه هى الحقيقة منذ البداية، ولكن السياسيين كانوا غالبا مَا يتحفظون فى إعلان مخاوفهم من الإسلام، ويكتفون بوضع الخطط وتنفيذها للحد من انتشار الإسلام فى الغرب، وللسيطرة على بلاد المسلمين، وإلصاق التهم بهم وتصويرهم على أنهم إرهابيون لتبرير العدوان عليهم.

وهذا الموقف ليس جديدا، ففى الغرب كتابات كثيرة تنبه إلى ضرورة تفهم الإسلام والنظر إليه بعين الإنصاف والتعامل معه بما يستحق من الاحترام. لأن عداء الغرب للإسلام هو الذى أدى إلى رد الفعل السائد فى العالم الإسلامى تجاه الغرب، كما أن هناك كتابات أخرى تنبه الغرب إلى أن العالم الإسلامى يمر الآن بمرحلة جمود وضعف، لكن هذه المرحلة لن تستمر إلى الأبد، ولا بد أن يعد الغرب نفسه للمرحلة القادمة التى ينهض فيها العالم الإسلامى ويحقق التقدم الذى يستحقه لما يزخر به من كفاءات بشرية وثروات طبيعية ومالية وموقع حاكم على خريطة العالم، وهؤلاء يرون أن أهم عناصر القوة فى العالم الإسلامى هى القوة الروحية، قوة الإيمان واليقين.. وهذه القوة مهملة اليوم، ولم يدرك العالم الإسلامى خطورتها بعد، ولكن سيأتى يوم يعود فيه الوعى إلى العالم الإسلامى وتصبح هذه القوة الروحية أساسا لجمعهم على طريق واحد، ومن هؤلاء الباحث الألمانى باول شمتز صاحب كتاب (الإسلام: قوة الغد العالمية) الذى ترجمه من الألمانية الدكتور محمد شامه وصدر باللغة العربية فى عام ١٩٧٤، وكتب مقدمته العربية الدكتور محمد البهى وزير الأوقاف الأسبق.

فى رأى هذا الباحث الألمانى أن الحرب العالمية الأولى أدت إلى القضاء على الأفكار الإنسانية فى الغرب ودفنتها فى ساحة القتال، ولم يتبق لدى الغرب فى علاقته بالعالم سوى الخوف: الخوف من الصين والدول الآسيوية، والخوف من الشعوب الأفريقية ونموها البشرى الهائل، والخوف من العالم الإسلامى لعدة أسباب تحتاج إلى تحليل، منها على سبيل المثال:

١ - الخوف من أن يعيد التاريخ نفسه ويستعيد العالم الإسلامى القوة العالمية التى كانت له لعدة قرون، خاصة إذا تغيرت الروح وتحول المسلمون إلى استثمار عناصر القوة لديهم بالطريقة الصحيحة، وهذا ما سبق أن نبه إليه الكاتب البريطانى هيلير بيلود Hilaire Belod الذى توفى سنة ١٩٥٣ كتب يقول: (لا يساورنى أدنى شك فى أن الحضارة التى ترتبط أجزاؤها، وتتماسك أطرافها وتحمل فى طياتها عقيدة مثل الإسلام ستكون خطرا على الآخرين، وقد يعارض هذا الرأى من يرى أن الإسلام فقد سيطرته على مفاتيح التقدم المادى والتكنولوجى ولم يلحق بالتقدم العلمى الحديث، لكن تعويض ذلك ليس بالأمر المستحيل.. ولا أستطيع أن أدرك لماذا لم يعوض العالم الإسلامى ما فاته فى ميادين العلم والتكنولوجيا، إذ لا تحتاج علوم الهندسة الحديثة إلى عقلية خاصة، وتحتاج فقط إلى دراستها، ومع ذلك فإن التقدم المادى ليس كل شىء، لأن الحضارة الإسلامية ما زالت محتفظة بجوهر تماسكها وتفوقها وهو الإسلام.

ولعل هذا ما يفسر السياسات الغربية التى تحجب أسرار التفوق العلمى والتكنولوجى وتحتكرها لنفسها لكى يظل العالم الإسلامى على ما هو عليه. كما يفسّر سياسات الغرب للحيلولة دون ظهور كيانات عربية أو إسلامية موحدة، والاستمرار فى تنفيذ سياسة فرق تسد بمنتهى الدقة، لأن وحدة العالم الإسلامى مع القوة الروحية التى يملكها إذا أضيف إليها التفوق المادى، أو على الأقل إذا أمكن تجاوز حالة التخلف المادى، فإن هذا (الخطر الإسلامى) الذى يتخوفون منه سوف يعود إلى سابق عهده.

❑❑❑

وباول شمتز الألمانى يتساءل: لماذا لا يتعلم العالم الإسلامى ما تعلمناه فى مجال التكنولوجيا، وهذا ليس صعبا، بينما استعادة الغرب للقوة الروحية- التى يتميز بها الإسلام- هى المسألة الصعبة!

٢ - التقدم الاقتصادى الكبير الذى حققه الغرب كان بسبب تخلف العالم الإسلامى، فهذا العالم يضم أكثر من ١٢٠٠ مليون نسمة ويمثل سوقا كبيرة تحقق الانتعاش للاقتصاد الغربى، ويحتل مساحات ومواقع استراتيجية حاكمة على خريطة العالم. وفيه ثروات كثيرة لا يحسن المسلمون استغلالها وهى تمثل عماد النهضة الاقتصادية والصناعية فى الغرب، وفى نفس الوقت

فـإن هذا العالم الإسـلامى تحدث فيه تغيرات عميقـة، وتظهر كفاءات وطبقـات متعلمة لديها تطلعات للحاق بالغرب، وترى أنها ليسـت أقل شـأنا من أمثالها الغربيين، مما يهدد السـيطرة الاقتصادية والسياسـية للغرب على العالم الإسلامى فى المستقبل القريب أو البعيد. ولمواجهة هذه الظاهرة ليس أمام الغرب سـوى تفكيك العقيدة الإسـلامية، وتخفيف العلاقة بين المسلمين وبين دينهم، وتشـكيك المسـلمين فى هذا الدين، وتوجيه حملات لتشويه الإسـلام تصل أصداؤها إلى العالم الإسلامى وتؤثر فيه.

يقـول باول شـمتز: (إن انتفاضة العالم الإسـلامى صـوت نذير للغرب، يسـتلزم تجمع الدول الغربية لمواجهة هذا العملاق الذى بدأ يصحو. ويستشـهد على ذلك بالحركات الوطنية التى كانت تقود النضال ضد الاحتلال وتطالب بالاسـتقلال وإعادة بناء الدول الإسـلامية وفقاً لمواصفات الدولة الحديثة. ويشير إلى دور علماء الإسلام فى هذه الحركات الوطنية مما أدى إلى التقارب بين العناصر القومية والدينية.

ويقول الباحث الألمانى: (إن قوة القرآن فى جمع شمل المسلمين لم يصبها الوهن، ولم تنجح الأحداث والهزائم التى مرت على المسلمين فى القرون الأخيرة فى زعزعة ثقتهم به كقوة روحية تجمع التيارات المختلفة.. إن الروح الإسـلامية ما زالت تسيطر على تفكير وعواطف القادة فى العالم الإسلامى وستظل هذه الروح ما دامت هناك شعوب ربطت مصيرها بتعاليم الإسلام وتعتقد أن الرباط الجامع بين شعوبها المختلفة فى الجنس واللون هو الإسلام، ويبدو من الصعب جدا تغيير هذه الحال).

ويدلـل على فكرته بمـا حدث فى تركيا بثورة كمـال أتاتورك التى تحررت مـن الدين وكانت عنيفـة فى ذلك، وعلى رغم مرور السـنين على هـذا النهج فما زالت فى تركيـا حتى اليوم مراكز قوى ذات ثقل وتأثير على الشـعب التركى تتمسـك بالإسلام، وتدعو إلى العودة إليه. وكذلك الحال فى شـمال أفريقيا، فقد اندلعت ثورات ضد الاسـتعمار الغربى فيها وكانت أهم أسبابها المباشرة: الأزمة الاقتصادية التى سبّبها الاستعمار وضاقت الحياة على أهل البلاد، بينما يستنزف الاستعمار ثرواتها، وكان هذا السبب الوطنى ينطوى على سبب آخر أقوى هو العامل الدينى، فالدين والوطنية اجتمعا ضد الاستعمار والاستغلال الغربى.

❑❑❑

ويستشـهد باول شـمتز على ارتباط الوطنية بالإسـلام فى العالم الإسـلامى، بـدور الأزهر فى مواجهة الاستعمار الفرنسى ثم الاستعمار البريطانى، ويقول: (إن موقف الأزهر من القوى الغربية معروف، فهو لا يهادن المسـتعمر، ويعبئ المسلمين بمشاعر الكراهية للأجانب الذين اقتحموا ديار الإسلام، ويحرضهم على النضال ضد الاستعمار ومقاومته).

ويصل من تحليله إلى أن نقطة التصادم بين الغرب والعالم الإسلامى هى تضارب المصالح. مصالح الغرب تدفع إلى احتلال واستغلال أسواق وثروات وأرض العالم الإسلامى والإبقاء عليه فى حالة انقسام وتخلف لكى تسهل السيطرة عليه، والعالم الإسلامى أدرك أن من حقه أن يعيش حرا، ويوجه ثرواته لصالح الشعوب الإسلامية، ويتقدم فى الصناعة والتكنولوجيا، ويخرج من نطاق السيطرة والتبعية للغرب. وهذا الصراع وإن كان فى جوهره صراعا اقتصاديا واستراتيجيا وسياسيا، إلا أن الإسلام يدخل فيه لأنه القوة التى تعوق المخطط الغربى وبالتالى يمكن أن تكون عقبة فى طريقه. وليس أمام الغرب إلا أن يحول دون صعود العالم الإسلامى ووحدته.

والوحدة الإسلامية كما يراها باول شمتز لا تعنى تجمّع الدول الإسلامية فى دولة واحدة، لأن هذا الغرض مستحيل، وقد باءت بالفشل كل المؤتمرات واجتماعات القادة فى الدول الإسلامية منذ نهاية الحرب العالمية الأولى حتى اليوم فى التقدم خطوة واحدة نحو هذا الهدف، مع أنهم يتحدثون عنه كثيرا، والممكن الآن هو توحيد الأهداف السياسية الوطنية بين الدول الإسلامية ضد الاستبداد الداخلى ومقاومة الهيمنة الخارجية، وحتى هذا الهدف لن يتحقق فى المستقبل القريب لوجود عوائق كثيرة لا بد من التغلب عليها أولا، وهذا يحتاج إلى زمن قد يطول، وربما يحتاج إلى أجيال جديدة بفكر مختلف عن فكر الجيل الحالى من قادة العالم الإسلامى.

وهو يشير أيضا إلى فكرة (الجامعة الإسلامية) التى كان ينادى بها جمال الدين الأفغانى وكان يدعو إلى أن تكون بلاد المسلمين للمسلمين يتنقلون فيها بحرية ويطردون منها المستعمرين، وكان مفهوم هذه الجامعة الإسلامية هو الرابطة التى تحقق التنسيق بين المسلمين فى توجهاتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية. ولم يكن حلم جمال الدين الأفغانى قادراً على التحليق إلى حد تصور أن يصبح العالم الإسلامى كيانا واحدا.

❑❑❑

كان العالم الإسلامى قبل الحرب العالمية الأولى يعيش فى سبات عميق، ويعانى من الفقر والتخلف والجهل ويعتبر ذلك قدراً مقدوراً عليه، كما كان الاستعمار الغربى قد فرض سيطرته وتولية أنصاره وعملائه، ولكن الأمر اختلف بعد الحرب العالمية الأولى، وتغيرت مناطق كثيرة فى العالم، أما منطقة الشرق الإسلامى فقد تحولت تحولا جذريا، فقد بدأت تظهر فيها دول حديثة على أساس قومى، وبدأت الاتصال بالبلاد الغربية، واحتكت بالحضارة الغربية، ونتج عن ذلك أن تغير شكل بنائها الاجتماعى والاقتصادى والسياسى، وقامت دويلات مستعمرة أو نصف مستعمرة على أنقاض الأوضاع السياسية فى هذه المنطقة المزقة التى كانت تتنازعها أطماع السياسة الدولية كما كانت على مدى عشرات السنين حقل تجارب لاختبار القوى الاستعمارية الكبرى. ووضعت

الحرب حدا لهذه المنازعات بتقسيم المنطقة على الدول الاستعمارية، غير أن الدول الجديدة حاولت بناء كيانها بمجهودها الذاتى وبمعاونة بعضها البعض. وباختصار فإن الانهيار الذى عم المنطقة أثناء الحرب العالمية الأولى كان سببا فى ظهور حركة تدعو إلى إيقاظ الوعى التاريخى وإلى الاستقلال السياسى، وبدأت دول الشرق الإسلامى تظهر على مسرح السياسة العالمية بعد أن ظلت سلبية وغائبة عشرات السنين، وبدأت تطالب بحق تقرير المصير، وبذلك بدأت حقبة جديدة فى تاريخ النزاع بين الشرق والغرب.

٣ - يضيف باول شمتز سببا آخر للخوف من الإسلام فى الغرب هو الزيادة السريعة فى السكان، وبذلك فسوف يتضاعف عدد السكان فى العالم الإسلامى بينما يقل عدد السكان فى بعض دول الغرب أو يبقى العدد ثابتا تقريبا، مما يترتب على ذلك من خلل فى موازين القوى البشرية، وسوف يدعو ذلك الملايين من العالم الإسلامى إلى الضغط على الغرب للحصول على أكبر قدر من الثروات الطبيعية فى أرضهم فيكون ذلك على حساب النمو الاقتصادى فى الغرب، أو أن تندفع هذه الملايين إلى الهجرة نحو الغرب المتقدم فيتغير التركيب الديموجرافى وتتسع رقعة الإسلام فى الغرب.

❑❑❑

ويتوقف باول شمتز عند مرحلة النزاع بين بريطانيا والقومية الإسلامية فى فلسطين وقد اتجهت السياسة البريطانية فيه إلى حل يخالف ما اتخذته فى احتلالها للعراق. فقد استدعت بريطانيا إلى الشاطئ الاستراتيجى المهم- وهو الجناح الشرقى الذى يحمى قناة السويس- حليفا يقف بجانبها ويساعدها على منع التقاء العالم الإسلامى. وكان وعد بلفور لليهودية العالمية فى طابعها الصهيونى بمنحها أرضا فى فلسطين لإقامة دولة تساعد على حماية المصالح البريطانية ضد القومية العربية والثوار العرب، وكانت بريطانيا تعرف القيمة الاستراتيجية لفلسطين، وكان هناك اقتراح أثناء إعداد معاهدة - سايكس بيكو - بتدويل فلسطين، وكان الهدف إبعاد المصالح الفرنسية عنها لكى ينحصر النفوذ الفرنسى فى تونس والجزائر وسوريا ولبنان، وكان هذا الاقتراح يتضمن أن تتولى بريطانيا مراقبة هذا التدويل. ومن هنا بدأ الانتداب البريطانى على فلسطين، وبدأ دخول الصهيونية العالمية فى الصراع الدائر على فلسطين، وقدمت نفسها على أنها ستكون الحاجز الذى يخفف الضغط العربى والإسلامى على الاستعمار البريطانى. وحتى عام ١٩٣٠ لم يكن المهاجرون اليهود إلى فلسطين يزيدون على ٧ آلاف مهاجر لكن هذه الهجرة أثارت ثائرة العالم العربى والإسلامى ضد بريطانيا، ففتحت بريطانيا باب الهجرة اليهودية حتى بلغ عدد المهاجرين عام ١٩٣٢ حوالى ٩٥٠٠ يهودى، ووصل عددهم فى عام ١٩٣٣ إلى ما يزيد على ٣٢ ألفا، وفى عام ١٩٣٤ أصبح عددهم ٤٢ ألفا، وقفز العدد عام ١٩٣٥ ليصبح ٦٢ ألفا، وأدت السياسة البريطانية إلى اقتطاع جزء من المنطقة العربية بالقوة ليعيش فيه مهاجرون من بلاد غير عربية، وكان وعد بلفور إيذانا

بإنشاء وطن قومى لليهود فى أرض مملوكة للعرب والمسلمين، لكن هذا الوطن اليهودى كان يحقق مصالح بريطانيا الاستراتيجية التى كانت تستعمر الدول العربية، وكانت بريطانيا حريصة على أن يظل الصراع فى المنطقة بين شعب يهودى يحاول إثبات وجوده وبين تزاحم الشعوب الإسلامية ودفاعها عن وطنها. وكانت بريطانيا ترى أن استمرار هذا الصراع هو الضمان لاستمرار هيمنتها وسيطرتها على هذه المنطقة الاستراتيجية التى تعتبر مفتاح الشرق، وكان التفكير الاستراتيجى البريطانى قائما على أن كُلاً من الدولة اليهودية والدول العربية والإسلامية سوف يزيدان الارتباط بها ويحتميان، وسيجد العرب أنهم محتاجون إلى استمرار استعمارها للمنطقة.

لكن الذى حدث عكس ذلك، فإن الولاء الإسرائيلى لبريطانيا تحول بعد ذلك إلى الولايات المتحدة. وتعمق فى نفوس العرب والمسلمين الشعور بمرارة الهزيمة التى كانت هذه المرة هزيمة حاسمة، وقد تفجرت مشاعر العداء فى جميع الدول العربية والإسلامية للاستعمار الغربى (البريطانى والفرنسى والإيطالى) وخرجت موجات الرفض من المساجد بما يعبئه هذا الدين (الإسلام) فى نفوس أتباعه من كراهية للاستعمار، وقاد علماء المسلمين الثورات ضد الاستعمار فى مصر وتونس والمغرب والجزائر وغيرها، وارتكب الاستعمار الغربى أخطاء فادحة بالاعتداء على المساجد والمقدسات الإسلامية فأشعل وعمّق الإحساس بأن العدوان من الغرب موجه إلى الإسلام ذاته، بعد أن أصبح الدين والوطنية مزيجا واحدا وقوة دافعة لحركات التحرر فى العالم العربى والإسلامى.

❑❑❑

ويروى باول شمتز (قصة الخداع الغربى الكبرى للمسلمين) عندما بدأت ايطاليا تحت حكم موسولينى التوسع الاستعمارى فوجهت أطماعها إلى العالم الإسلامى، وفى الفترة من ١٩٢٨ حتى ١٩٣٢ واجه الاستعمار الايطالى فى ليبيا مقاومة عنيفة كان دافعها حماية الإسلام من الغزاة الأجانب، ولم تتمكن ايطاليا من فرض سلطانها فى ليبيا إلا بعد أن ساقت الجزء الأكبر من الشعب الليبى إلى معسكرات الاعتقال، ولكن نضال السنوسيين أثبت قوة العقيدة الإسلامية فى تحريك الثورة ضد القوات الأجنبية. وقد اعترف بذلك الجنرال (جرازيانى Graziani) فى تقريره عن المعركة مع السنوسى والذى يتحدث فيه عن صلابة المقاومة بقيادة الشيخ عمر المختار. وبعد أن وقع عمر المختار فى الأسر سأله الجنرال: لماذا تصر على المقاومة ضد ايطاليا؟. فكان الجواب: لأنه واجب العقيدة المقدس، ويقول باول شمتز: إن المعارك فى ليبيا أكدت التضامن النضالى لجميع العالم الإسلامى تجاه الأطماع الاستعمارية للقوى الغربية، فالصحافة فى الدول الإسلامية- من القاهرة حتى كابول- هاجمت ايطاليا الفاشية وأثارت الرأى العام الإسلامى ضدها وعبأت الجماهير الإسلامية بالغضب على قوات الاحتلال الإيطالية فى ليبيا، وانبرت الأقلام تروى للرأى العام بإسهاب الفظاعة والوحشية الإيطالية لتحريض العالم الإسلامى لاتخاذ موقف مضاد تجاه إيطاليا الفاشية.

ومـا حدث لإيطاليا فى ليبيا حدث لها فى اليمن. وهو أيضا ما حدث للاسـتعمار الغربى فى كل دول العالم الإسـلامى، فقد كان الإسلام هو القوة المحركة للغضب والرفض والمقاومة ضد الاستعمار وهـذا ما جعل الغرب يدرك أن الإسـلام يمثل عقبة كبرى أمام أطماعـه ومخططاته، وأن العدو هو الإسـلام، وأن السبيل الوحيد لاسـتقرار النفوذ الغربى فى العالم الإسلامى يستلزم القضاء على هذا الدين أو تشويهه أو تفكيك العقيدة على الأقل، وذلك بعد أن فشلت الجهود لاستخدام نغمة الصداقة مع الشعوب الإسلامية لتحقيق الأغراض السياسية لدول الغرب الاستعمارية.

ويشـير باول شمتز إلى معاهدة (سـايكس- بيكو) التى وقّعت عام ١٩١٦ بين فرنسا وبريطانيا لتقسيم العالم العربى بينهما بعد هزيمة الامبراطورية العثمانية فى الحرب العالمية الأولى، وبذلك عادت المواجهة بين العالم الإسـلامى والغرب الاسـتعمارى، وبفضل تطـور المواصلات أصبح العالم الإسـلامى مترامى الأطراف متصلا وازداد فيه الشعور بالجوار وبالرابطة الإسلامية وتأكدت أسس الشـعور الجماعى بوحدة مصير الدول الإسـلامية. وبدأ العالم الإسلامى يسـتيقظ. ولذلك واجهت حملـة نابليون مقاومة عنيفة، وفى نفس الوقت فإن نظم الحكم الاسـتبدادية فى العالم الإسـلامى نجحت فى استخدام الإسلام وسيلة لاستمرارها فى الحكم، وذلك بإشاعة الكراهية للغرب وتعميق الشـعور لدى الشعوب الإسـلامية بأن المحافظة على الجمود والتخلف هما الضمان للصمود ورفض نمـوذج الحكم الغربى الكافر، وعلـى رغم أن هذه الأنظمة كانت تدّعى الإصـلاح. فإنها فى الواقع كانت ترفض كل ما هو جديد.. وهذا هو السـبب فى الجمود الذى أصاب العالم الإسـلامى لسـنوات طويلة. وقد امتد الجمود إلى النواحى السياسـية والاقتصاديـة والتكنولوجية كما امتد الجمود إلى فهم المسلمين للإسلام.

❑❑❑

ويرى باول شـمتز أن محاولات الإصلاح فى تركيا ومصر وغيرها من الدول الإسلامية استعانت بالغـرب لتقليد النموذج الغربى، وفتحـت الباب للنفوذ الأوروبى، فدخل الاسـتعمار الاقتصادى وبعده دخل الاحتلال العسـكرى البريطانى مصر عام ١٨٨٢ وفقدت الدولة سيادتها، وحدث نفس الشـىء فى إيران وتركيا، فقد استدعت إيران بعثة عسـكرية من انجلترا وفرنسا عام ١٨١٧ للعمل كخبراء لتدريب القوات الإيرانية على الأسـاليب الحربية الحديثة، وفى مرحلة تالية استعان شاه إيران بخبراء من النمسـا وإيطاليا وفرنسـا لتحديث بلاده، فكانت هـذه البعثات الأجنبية مقدمة لتغلغـل النفوذ الغربى وانهيـار الدولة الإيرانية. وكذلك فى تركيا فقـد فتح أتاتورك الباب للعقل الغربى والنفوذ الغربى، ولم يسـتطع التخلص منهما بعد ذلك، ولم تستطع البلاد الإسلامية الدفاع عن نفسـها ضد أوروبا التـى اتخذت موقفا هجوميـا، وازداد ضعف العالم الإسـلامى، وأدى ذلك كله إلى سـقوطه سياسـيا، وأدت مأساة سقوط العالم الإسـلامى فى قبضة النفوذ الغربى إلى تعميق

مشاعر العَداء فى الجانبين، ولم تكن أمام العالم الإسلامى وسيلة لمقاومة الاحتلال الغربى سوى تعبئة الشعوب دينيا، فأصبح الإسلام هو السلاح السياسى ضد الدول الغربية، وظهرت الدعوة إلى الوحدة الإسلامية كوسيلة دفاعية فى مواجهة عدوان الغرب.. وزاد ذلك من مشاعر العَداء لدى كل طرف للآخر.

❑❑❑

وحاربت دول الغرب فكرة الوحدة الإسلامية، وامتدت حروبها إلى الإسلام ذاته، ويقول باول شمتز إن الغرب يخشى من هذه الوحدة، ويجند قواه لمنع حدوثها. وقد نبه إلى خطورة الوحدة الإسلامية أغاخان زعيم المسلمين فى الهند وصديق انجلترا، فقد كتب فى عام ١٩١٤ يقول: إن المسلمين فى الهند لم ينعزلوا عن إخوانهم المسلمين فى البلاد الأخرى، فبينهم وبين إخوانهم المسلمين فى البلاد الأخرى وحدة لا تقبل الانفصال، وتعلو على الخلافات المذهبية، فقد اجتمع المسلمون على تعاليم القرآن وأسهم فى وحدتهم تاريخ وفلسفة العرب والشعر الفارسى، والمصرى والمغربى والأسبانى، وهناك رابطة روحية تجمع الأتراك والعرب والفرس والهنود.. هذه الرابطة هى الإسلام الذى يعمّق فيهم وحدة الفكر والشعور.

❑❑❑

وينتهى باول شمتز إلى أن هذه الوحدة الإسلامية هى القوة العالمية الكبرى التى يخشى الغرب ظهورها، ويعمل بكل قواه لمنع ظهورها، وذلك بسياسات متعددة لتفكيك العالم الإسلامى وإثارة الخلافات داخل هذا العالم الإسلامى، وبتعميق النزاعات الوطنية فى كل دولة لكى تتغلب على النزعة إلى الوحدة الإسلامية.

ويضرب باول شمتز المثل بما حدث فى مصر بعد احتلالها عام ١٨٨٢ وخضوعها للسيطرة البريطانية، فقد ظهرت فيها الحركة الوطنية ضد الحكام الرجعيين أصحاب السيادة المطلقة، وضد الاستعمار الأجنبى فى نفس الوقت، وإن كانت بريطانيا قد استخدمت الخديوى وحكومته لتحقيق مطامعها الاستعمارية، ومع ذلك فقد استمرت الحركة الوطنية فى مصر وانتشرت بعد الحرب العالمية الأولى إلى الأجزاء الأخرى من العالم العربى والإسلامى فظهرت فيها حركات مماثلة للحركة الوطنية فى مصر.

وكان مصطفى كامل - كما يقول باول شمتز - من زعماء الحركة الوطنية الذين تعاطفوا مع إخوانهم فى تركيا، وكان قد درس فى فرنسا، وأصبح بعد عودته إلى الوطن زعيما لتيار يعادى الاستعمار، ويؤكد مفهوم (الوطن). وأصدر مصطفى كامل فى عام ١٨٩٥ نشرة بعنوان (مصر الحرة) حدد فيها معالم الدولة المصرية التى يسعى لتحقيقها، وقال فيها: (أريد أن أبعث الوطنية فى بنى

وطنى، تلك الوطنية التى تعيد مصر للمصريين، وتعيد المصريين لمصر، وأسس جريدة اللواء لتحقيق هـذا الهدف وتبلورت الحركة الوطنية بعد ذلك فـى تيارين: الحزب الوطنى الذى تزعمه مصطفى كامل، وحزب الأمة (الوفد) الذى تزعمه سعد زغلول، وفى عام ١٩٠٧ تألف الحزبان وكونا جبهة سياسية متينة رسمت برنامجها السياسى على الدعوة إلى الاستقلال، وجلاء الجيش البريطانى، وظهر حزب الدستوريين الذى قام على فكرة أن انحسار النفوذ البريطانى يمكن أن يتم تدريجيا، وعلى مدى زمن طويل، يجرى فيه بناء سلطة الدولة المصرية. وبعد ذلك وجد الثوار فى مصر أن عليهم مواجهة عدوين وليس عدوا واحدا أحدهما هو الاحتلال البريطانى، والثانى هم عملاء الاستعمار من المصريين.

وفى تركيا ظهرت ثورة شعارها (تركيا للاتراك) كما فى ثورة مصر التى رفعت شعار (مصر للمصريين) ورفعت الثورة فى إيران أيضا شعار تحرير البلاد من التبعية للروس والبريطانيين الذين منحهم الشاه حقوقا وامتيازات واسعة، والقضاء على استبداد الشاه الذى أفسد البلاد.

وكان الإسلام قاسما مشتركا فى كل هذه الثورات.

❑❑❑

ولقد تنبه الغرب إلى خطورة الإسلام فى العصر الحديث عندما بدأت الثورة الوطنية فى إيران، بدأت بمظاهرة من المسجد واعتصم المتظاهرون فيه، وكانت هذه بداية الكفاح ضد استبداد الشاه فى ديسمبر ١٩٠٥، واضطر الشاه (مظفر الدين) إلى تنفيذ مطالب الشعب الإيرانى، ووعد بالاعتراف بالدستور الذى يعطى الشعب حقوقه، وأنشئ أول برلمان إيرانى نتيجة هذه الثورة الوطنية فى أكتوبر ١٩٠٦، وبعد الشاه (مظفر الدين) جاء ابنه الشاه (محمد) الذى عقد معاهدة فى ١٩٠٧ مع روسيا وانجلترا لتقسيم إيران إلى منطقة نفوذ روسية وأخرى بريطانية ، واستمرت الثورات فى إيران ولم تخمد إلا بعد زوال النفوذ الأجنبى.

بعد ذلك ظهرت موجة الإصلاح لتجديد الفكر الإسلامى، وكان جمال الدين الأفغانى أول من رفع لواء هذه النهضة وظل يجوب العالم الإسلامى شرقا وغربا لتعبئة القوى حول دعوته وأسس مدرسة فكرية تدعو إلى الإصلاح السياسى، وتهاجم الأوضاع الفاسدة فى الحكم وفى الحياة السياسية والاجتماعية، كما تهاجم الحكومات الاستبدادية، ونجح الأفغانى فى دعوته إلى تحرير الأزهر من نظام التعليم التقليدى الذى توارثه الخلف عن السلف، وحين اضطر إلى مغادرة مصر عام ١٨٧٩ ترك فيها عددا من التلاميذ نشروا أفكاره، وكان أبرزهم الشيخ محمد عبده الذى تولى منصب الإفتاء ودعا إلى إصلاح مناهج الأزهر وتحققت معظم آرائه التقدمية بعد معارضة من الشيوخ الذين قاوموا الإصلاح والتجديد، وظل الأزهر مهدا للدعوة إلى النهضة الإسلامية واستمدت منه الجماهير القوة

لمحاربة الاستعمار، وظهرت فيه طبقة الزعماء الإسلاميين الجدد الذين عملوا على تخليص الأزهر من الجمود الذى سيطر عليه لعدة قرون.

ترك جمال الدين الأفغانى مصر مطرودا لأن دعوته أقلقت (الخديوى توفيق) ومستشاريه الأوروبيين وهزت مراكزهم، فقرروا التخلص من هذا المشاغب الخطير - كما كانوا يسمونه - فاتجه إلى الهند وهناك واصل دعوته ضد الاحتلال البريطانى للهند فطرده الإنجليز منها عام ١٨٨٢ بسبب ما وصفوه بالنشاط الهدام الذى أفسد عليهم الجو فى البلاد وأيقظ المعارضة ضدهم، فذهب إلى أوروبا، وعاش فيها منفيا سبعة أعوام متنقلا بين عواصمها حتى دعاه الشاه (مظفر الدين) إلى طهران عام ١٨٨٩، فكان نشاطه وتأثيره فى إيران مثل نشاطه وتأثيره فى مصر وتركيا والهند، وكان تأثيره يسرى بين الناس بسرعة فائقة والتف حوله الناس يطالبون معه بالتجديد والنهضة والثورة على الجمود، فاضطر إلى الهرب إلى لندن عام ١٨٩٢ بعد أن انقلب عليه الشاه، وفى عام ١٨٩٥ طلب السلطان عبد الحميد من الأفغانى أن يعود من لندن إلى القسطنطينية فذهب إلى تركيا وواصل دعوته هناك، وترك له السلطان حرية الدعوة إلى الوحدة الإسلامية، لكنه انقلب عليه بعد ذلك عندما هاجم الأفغانى استبداد السلطان عبد الحميد، وأخيرا دس أعوان السلطان السم للأفغانى، ولكن أفكاره ظلت حية بعد موته، واستمر تأثيرها فى كل المدارس الدينية الإسلامية تقريبا.

وبعد فترة ظهرت دعوة أخرى مختلفة عن حركة التجديد التى قادها الأفغانى، وكانت هذه الحركة تتسم بالتعصب والتمسك حرفيا بالنصوص، والدعوة إلى العودة إلى العصور الماضية والرجوع بالمجتمع الإسلامى إلى القرون الأولى، ووصلت إلى تحريم خروج المرأة، وإلزام الرجال بإطلاق اللحية وإلى هدم الأضرحة، اعتبر هؤلاء المتعصبون أنفسهم أنهم هم الذين طهروا الإسلام، وامتد نشاط هذا التيار المتشدد ليغزو العالم الإسلامى ويمحو آثار حركة التجديد التى قادها الأفغانى وتلاميذه، وأفرخت بعد ذلك الجماعات الإرهابية التى عانى منها العالم الإسلامى وامتد خطرها إلى الغرب، وكانت بذلك مفجرة الشرارة لموجة جديدة من العداء للإسلام فى الغرب أقوى من كل الموجات السابقة وأشد خطرا على أوطان المسلمين.

❑❑❑

وفى رأى باول شمتز أن أهل السنة بدءوا فى العودة إلى المبادئ الصحيحة للإسلام، وكانت بداية اليقظة الإسلامية بتأثير عدوان الغرب على بلاد المسلمين، ورد فعل على الاستعمار الغربى الذى اقتحم هذه البلاد بقوة السلاح. ولم تكن اليقظة بين أهل السنة وحدهم، ولكنها شملت الشيعة أيضا، وظهرت قيادات دينية وفكرية فى المذهب الشيعى حملت لواء الإصلاح الدينى فى المجتمع الشيعى ونادت بالعودة بالدين الإسلامى إلى صفائه الأول.

ولكن عملية الإصلاح الدينى لم تكن دائما على الطريق الصحيح، ولم تلتزم بالسماحة، والبساطة، والاعتدال الذى يميز الإسلام، فقد ظهر التشدد والتطرف تحت ستار التمسك بالأصول وبالممارسات والسلوك الذى كان عليه المسلمون الأوائل من أبناء القبائل فى مجتمع المدنية، وكانت دعوة هؤلاء المتطرفين قائمة على استنكار ورفض أدوات الحضارة والتحديث ومبتكرات العلم والتكنولوجيا، وتكرار الهجرة والحياة فى الصحارى والمغارات أو- على الأقل- التمسك بكل ما هو قديم ورفض كل ما هو جديد. كذلك ظهرت فى الشيعة دعوات تطرف من نوع آخر. فقد دعا الشيخ أحمد العاصى الذى توفى عام ١٨٢٦ إلى أن الإمام الثانى عشر المختفى ما زال حيا إلى اليوم وسيعود فى يوم من الأيام ليملأ الأرض عدلا، وفى زمن غياب الإمام لا تنقطع صلته بشعبه، ولكنه يتصل به فى أثناء فترة الانتظار عن طريق زعيم روحى، فعاد التصور الذى مضى عليه قرون مرة أخرى، واعتقد كثير من الشيعة أن هذا الشيخ وتلميذيه من بعده هم رسل الإمام الثانى عشر الغائب، ملأهم بروحه، وأمدهم من فكره، مع أنهم لم يدّعوا أبدا أنهم على صلة شخصية بالإمام الغائب.

وعادت موجة الانحراف مرة أخرى عام ١٨٤٤ حين ظهرت هذه الحركة مرة أخرى فى صورة جديدة، فقد ادّعى (ميرزا على محمد) أنه على صلة مباشرة مع الإمام الغائب الذى اختفى قبل ألف عام، وأذاع أنه يمهد الطريق لعودة الإمام الغائب، ولقب نفسه باسم (باب الله) وصدق كثير من الشيعة هذا القول، وانطلقت حركة فى إيران باسم البابية، تشبه حركة قامت فى الغرب قبل ألف عام ادعت أنها تهيئ المسيحيين لاستقبال المسيح الذى أوشك أن يعود ليحكم ويملأ العالم عدلا وسلاما.

وازداد اتباع هذا (الباب) وتملكتهم العصبية الدينية، واستولى عليهم شعور العقيدة المتوهج، وأصبحوا خطرا على الإسلام وعلى الفكر الدينى الشيعى، كما كانوا خطرا على السلطة السياسية فبدأت فى مطاردتهم. وربط (الباب) تعاليم الدين بطريقة ملتوية باتجاهات وأفكار غريبة، فأنكر الحدود والجهاد ومنع الحجاب، ودعا إلى تحريم تعدد الزوجات. وتطورت هذه الدعوة حتى تحولت إلى الدعوة إلى القضاء على الدولة وإقامة مملكة دينية جديدة على أنقاضها يكون على رأسها (الباب) الذى يمهد الطريق لعودة الإمام الغائب. وهكذا تشابكت الأهداف السياسية بالأهداف الدينية، وصارت الدعوة إلى المبادئ الدينية وسيلة بعض الفرق الإسلامية للوصول إلى السلطة.

وفى أوائل عام ١٨٥٠ ألقى القبض على (الباب) وظل فى السجن بضعة أشهر، ثم نفذ فيه حكم الإعدام يوم ٨ يوليو ١٨٥٠ مع أحد تلاميذه، وبعدها ظهرت أساطير حول ما ظهر من كرامات ومعجزات أثناء تنفيذ الإعدام، وانتشرت هذه الأساطير على أيدى أتباعه، ومن هذه الأساطير أن الحراس عندما ربطوا (الباب) وتلميذه مع بعضهما بالحبال وضع التلميذ رأسه على صدر (الباب)

وحين أطلق الحراس أول دفعة من الرصاص، وانقشع الدخان، رأى الواقفون (الباب) وتلميذه واقفين بدون قيود، وكانت المعجزة أن الرصاص أصاب القيود وأصابتها الدفعة الثانية وهما بلا قيود. وأوقدت هذه الأسطورة فى أتباعه حماسا لا يوصف، دفع بهم إلى الاستشهاد فى سبيل دعوته، فتم إعدام أعداد لا حصر لها، كان يتم وقوفهم صفوفا أمام حائط ويتم إعدامهم بالرصاص بصورة جماعية فوجا بعد فوج، ومع ذلك استمرت هذه الدعوة على يد الخليفة الذى عينه (الباب) قبل إعدامه، وكان الخليفة (ميرزا يحيى) لا يقل عنفا فى دعوته عن (الباب) إلى أن دبرت الحركة محاولة لاغتيال (الشاه ناصر الدين) وفشلت المحاولة فكانت هذه بداية حملة لإعدام وسجن وطرد أتباع هذه الحركة، ولكن (ميرزا يحيى) زعيم الحركة استطاع أن يهرب من إيران إلى بغداد هو وأخوه غير الشقيق (بهاء الله) وجمع من أتباعه واتخذوها منفى لهم يمارسون منها نشاطهم ويمتد تأثيرهم على إيران عن طريق الإيرانيين الذين يمرون ببغداد وهم فى طريقهم لزيارة الأماكن المقدسة فى النجف وكربلاء، وأقلق هذا الأمر شاه إيران (ناصر الدين) فطلب من الباب العالى فى تركيا إبعاده، فاستجاب الباب العالى ونقل (ميرزا يحيى) إلى الطرف الغربى من الإمبراطورية العثمانية بعيدا عن إيران. وفى هذا المنفى الجديد أعلن الأخ غير الشقيق (ليرزا يحيى) أن الإمام الثانى عشر الغائب عاد فى شخصه، وأن روح الإمام الغائب حلت فيه، فهو الإمام الغائب وقد عاد، وصدقه ناس كثيرون واتبعوه، ووقعت بين هذه الطائفة وبين أنصار أخيه (ميرزا يحيى) مشاحنات، وتطورت العداوة بين أنصار الأخوين إلى صراع حقيقى اضطر السلطة التركية إلى التدخل، فأرسلت الباب (ميرزا يحيى) هو وأتباعه إلى جزيرة قبرص وكان قد سمى نفسه (صبح أزل) أى (الفجر الخالى) بينما أرسلت أخاه (بهاء الله – الإمام العائد) وأتباعه إلى فلسطين واتخذ مدينة عكا منفى له. وصلت العداوة بين الفريقين إلى حد أن أصبح أتباع كل فريق على قائمة المطلوبين للقتل على يد الفريق الآخر، وكان كل فريق قد وصل إلى درجة اليقين بأن قتل أتباع الفريق الآخر عمل من أعمال العبادة والتقرب إلى الله ثوابه الجنة!

مات (ميرزا يحيى) فى منفاه فى قبرص، وتفرق أتباعه من بعده، أما أخوه (بهاء الله) فقد ظل فى عكا ثلاثين عاما محاطا بأتباعه إلى أن مات فى عام ١٨٩٢ ودفن فى مقبرة على أطراف المدينة تحوطها حديقة فيحاء. وخلال هذه الأعوام الثلاثين التى عاشها فى عكا ظل (بهاء الله) على اتصال بأتباعه فى إيران حتى وصل عددهم فى بعض التقديرات إلى مليون شخص، وكونوا خلايا سرية، وأشعلوا ثورة فى إيران عام ١٩٠٨.

وبعد موته انقسم ولدا (بهاء الله) إلى فريقين وتولى كل منهما زعامة طائفة، وبدأ ابنه الأكبر (عبد البهاء) فى الدعوة إلى اعتبار الإنجيل والتوراة مصدرا للشريعة الإسلامية مع القرآن، واجتذبت هذه الدعوة أتباعا لها فى أوروبا والولايات المتحدة، وأقيمت مراكز للطائفة فى فرنسا

وإنجلترا وأمريكا، وكان من أتباع هذه الطائفة وكيل وزارة فى الولايات المتحدة هو (بريان Bryan) كان يتـردد على قبر (بهاء الله) للزيـارة، وترك منصبه أثناء الحرب العالمية الأولى لأنه اعتقد أن سياسـة الرئيس الأمريكى ويلسـون لا تتمشـى مع مبادئ الطائفة. وامتد تأثير البهائية من المجال الدينى إلى المجال السياسى والاجتماعى.

هذه القصة عن البابية والبهائية التى خرجت من عباءة الشيعة ليست شيئا غريبا، لأن هناك طوائف وجماعات متطرفة ومنحرفة خرجت من عباءة السـنة أيضا، وتاريخ الإسلام لا يخلو فى كل مرحلة من مراحله من فئة أو جماعة أو طائفة تلبس أهدافها السياسية وأطماعها فى الوصول إلى السـلطة بمظهر دينى، وتضيف إلى الإسـلام ما ليس من طبيعته، وفى كل مرحلة تجد هذه الطوائـف أنصـارا يقدمون على الموت طواعية على ظن بأن هذا المـوت يقربهم إلى الله ويجزيهم عنه بالجنة.

ومثـل هـذه الأفكار والمذاهب والجماعـات الغريبة تدعو المعتدلين فى الغـرب إلى الظن بأن هذا هو الإسـلام، فيشعرون بالخوف من هذا الدين الذى يمتلئ تاريخه بالقتل والدماء، وهناك جماعات معينة – دينية وسياسـية – تجعل رسـالتها الإسـاءة إلى الإسـلام واختيار النماذج الشـاذة والضالة وتركز عليها الأضواء وتصورها على أنها الممثلة لحقيقة الإسلام، وتسهم بذلك فى تشويه صورة الإسلام، حتى أصبح الإسلام هو الضحية دائما من الجانبين: من أعدائه، ومن بعض أتباعه.

وهذا ما يدعو المخلصين للإسلام إلى أن يتحركوا فى اتجاهين: الاتجاه الأول التصدى لأمثال هذه الجماعات وكشف ما فى دعواتها من انحراف عن صحيح الدين، وتوعية جموع المسلمين إلى أن دين الإسـلام يتفق مع الفطرة السـليمة، ليس فيه تعقيدات نظرية ولا أساطير، وهو دين يخاطب العقل السـليم، ويصل إلى القلوب النقية ببساطته وتسامحه ودعوته الدائمة إلى السلام وإلى التعاون بين البشـر جميعا على اختلاف عقائدهم وألوانهم ولغاتهم باعتبار البشر جميعًا أبناء آدم وحواء، فهم من أب واحد وأم واحدة، وأن الاختلاف بين البشر لحكمة إلهية أخبرنا بها الله تعالى فى كتابه: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾ (الحجرات ١٣).

أمـا الطريق الثانى للدعوة إلى تصحيح صورة الإسـلام فهو التوجـه إلى الغرب، وتقديم الصورة الصحيحة للإسـلام بالمنطق وباللغة التى يفهمها الغرب. فهـذا العمل الإيجابى لمواجهة الحملات العدائية ضد الإسلام أفضل من الاكتفاء بالشكوى من الظلم الذى يتعرض له الإسلام فى الغرب. وفى الغرب كثيرون يريدون معرفة الإسلام، ويبحثون عن كتب تشرح الإسلام بأسلوب منطقى وعصرى، وتتشـوق إلى من يحدثها عن الإسـلام بلغة العصر وليس بلغة القرون الوسطى، وما دمنا نؤمن بأن

الإسلام صالح لكل زمان ومكان فلابد أن نقدمه لأهل كل عصر وكل مكان بما يناسب عقولهم ودرجة تقدمهم الثقافى والحضارى.

وإذا لم يقم المسلمون بهذا الواجب فسوف يظل الإسلام مظلوما وهدفا لحملات التشكيك والتشويه، مـا دام أتباعه هم الذين تخلوا عـن واجبهم، ولم يدركوا ما يفرضه التقـدم على الدعوة والدعاة من ضرورة التجديد.. تجديد الفكر الدينى.. وتجديد الخطاب الدينى.. أولا وقبل كل شىء.